

باب السنة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله
وأله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بني داراً وجعل فيها مادبة وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المادبة، ومن لم يجيب الداعي لم يدخل الدار ولم ياكل من المادبة. فقالوا: أكلوها له يَفْقَهُهَا، قال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: الدار الجنة والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس.

وجوب اتباع النبي ﷺ

هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» باب «الاعتداء بسنن رسول الله ﷺ»، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ برقم (٧٢٨١) كما أخرج معناه الإمام الترمذي في جامعته من حديث جابر في كتاب الأدب باب ما جاء في مثل الله عز وجل لعباده برقم (٢٨٦٠) ومن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه برقم (٢٨٦١)، والدارمي في المقدمة حديث رقم (١٢).

راوي الحديث

هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن غنم بن كعب بن سلمة، قال الذهبي في السير: الإمام الكبير المجتهد الحافظ صاحب رسول الله ﷺ أبو عبد الله وأبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي السلمى المدني الفقيه.

من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة موتاً، روى علماً كثيراً عن النبي ﷺ، وعن عمر وعلي وأبي بكر وأبي عبيدة ومعاذ بن جبل والزبير وطائفة. وروى عنه طائفة من التابعين كثيرون، وكان مفتي المدينة في زمانه، عاش بعد ابن عمر أعواماً وتفرد. شهد ليلة العقبة مع والده، وكان والده من النقباء البدرين استشهد يوم أحد، وكان جابر قد أطاع والده يوم أحد وقعد لأجل أخواته، ثم شهد الخندق وبيعة الشجرة، وشاخ وذهب بصره، وجاوز التسعين.

وأخرج الترمذي عنه قال: «استغفر لي رسول الله ﷺ ليلة البعير خمساً وعشرين مرة». وفي الصحيحين عن جابر: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم اليوم خير أهل الأرض». وكنا ألفاً وأربعمائة. قال الإمام الذهبي: مسنده بلغ ألفاً وخمسمائة وأربعين حديثاً؛ اتفق له الشيخان على ثمانية وخمسين حديثاً، وانفرد له البخاري بستة وعشرين حديثاً، ومسلم بمائة وستة وعشرين حديثاً.

إعداد



زكريا الحسيني

شرح الحديث

قوله: «جاءت ملائكة»، قال الحافظ في الفتح: لم أقف على أسمائهم ولا أسماء بعضهم، ولكن في رواية سعيد بن أبي هلال المعلقة عقب هذا عند الترمذي أن الذي حضر في هذه القصة جبريل وميكائيل، ولفظه: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي». فيحتمل أنه كان مع كل منهما غيره، واقتصر في هذه الرواية على من باشر الكلام منهم ابتداءً وجواباً، ووقع في حديث ابن مسعود عند الترمذي وحسنه، وصححه ابن خزيمة: أن النبي ﷺ توسد فخذة فرقد، وكان إذا نام نفخ؛ قال: فبينما أنا قاعد إذا أنا برجال عليهم ثياب بيض، الله أعلم بما بهم من الجمال، فجلست طائفة منهم عند رأس رسول الله ﷺ، وطائفة منهم عند رجليه، قوله: «فقال بعضهم إنه نائم»، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان». نقل ابن حجر الرامهرمزي قوله: هذا تمثيل يراد به حياة القلب وصحة خواطره، يقال: رجل يقظ إذا كان ذكي القلب، وفي حديث ابن مسعود فقالوا بينهم: ما رأينا عبداً قط أوتي مثل ما أوتي هذا النبي، إن عينيه تنامان وقلبه يقظان، اضربوا له مثلاً، وفي رواية سعيد بن أبي هلال، فقال أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً، فقال: «اسْمَعْ سَمْعَ أُنْثَى، وَاغْقَلْ عَقْلَ قَلْبِكَ إِنَّمَا مِثْلُكَ». وفي حديث ربيعة الجرشي عند الطبراني نحوه، وزاد أحمد في حديث ابن مسعود: «لِيَعْقَلْ قَلْبُكَ». ولقد قال ﷺ عن نفسه لعائشة عندما سألته أتنام قبل أن توتر؟ قال: «يا عائشة، إن عيني تنامان ولا ينام قلبي». أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه.

والحاصل أنه إذا كان المقصود يقظة القلب فقد أوتي رسول الله ﷺ الكمال في ذلك، ويحتمل أن هذا مما اختص الله عز وجل به نبيه ﷺ، فيكون من خصوصياته، وحديث عائشة المذكور يرجح ذلك، والله أعلم.

قوله: «مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مادبة». جاء في حديث ابن مسعود: «مثل سيد بني قصر». وفي رواية أحمد: «بنيانا حصيناً ثم جعل مادبة فدعا الناس إلى طعامه وشرابه، فمن أجابه أكل من طعامه وشرب من شرابه، ومن لم يجبه عاقبه - أو قال - عذبه». وفي رواية: «عذب عذاباً شديداً»، والمادبة بسكون الهمزة وضم الدال بعدها موحدة، وحكي

فتح الدال، ونقل ابن حجر عن ابن التين قوله عن أبي عبد الملك: الضم والفتح لغتان فصيحتان، ونقل عن أبي موسى الصامض: من قاله بالضم أراد الوليمة، ومن قاله بالفتح أراد أدب الله الذي أدب به عباده. ثم قال ابن حجر عقب ذلك: فعلى هذا يتعين الضم.

قوله: «وبعث داعياً» في رواية سعيد: «ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه». قوله: «فقال بعضهم أولوها له يَفْقَهُهَا». قال الحافظ في الفتح: قيل يؤخذ منه حجة لأهل التعبير أن التعبير إذا وقع في المنام اعتمد عليه، قال ابن بطال: قوله: «أولوها له» يدل على أن الرؤيا على ما عبرت في النوم. انتهى.

قال: وفيه نظر لاحتمال الاختصاص بهذه القصة لكون الرائي النبي ﷺ والمرئي الملائكة، فلا يطرد ذلك في حق غيرهم.

قوله: «فقالوا الدار الجنة» أي الممثل بها، زاد في رواية سعيد بن أبي هلال «قاله هو الملك والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول الله». وفي حديث ابن مسعود عند أحمد: «أما السيد فهو رب العالمين، وأما البنيان فهو الإسلام، والطعام الجنة ومحمد الداعي، فمن تبعه كان في الجنة».

قوله: «فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله»، لأن محمداً رسول الله ﷺ صاحب المادبة، فمن أجابه ودخل في دعوته أكل من المادبة، وهو كناية عن دخول الجنة، وقد جاء مبيناً في رواية سعيد، ولفظه: «وأنت يا محمد رسول الله، فمن أجابك دخل في الإسلام، ومن دخل في الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها».

قوله: «ومحمد فرّق بين الناس». قال ابن حجر رحمه الله: كذا لأبي زر بتشديد الراء فعلاً ماضياً، ولغيره بسكون الراء والتنوين «فرّق» وكلاهما متجه. زاد في حديث ابن مسعود: «فلما استيقظ قال: سمعت ما قال هؤلاء، هل تدري من هم؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: هم الملائكة، والمثل الذي ضربوا الرحمن بنى الجنة ودعا إليها عباده».

ولا شك أن محمداً ﷺ فرّق الناس، فإنه دعا الناس إلى الله تعالى، فمنهم استجاب لدعوته، ومنهم من أعرض وأبى، وهذا هو المراد بالتفريق.

الأخذ بالسنة مع القرآن

وفي هذا الحديث وأمثاله ما يبين وجوب الأخذ بسنن رسول الله ﷺ، إيماناً وتصديقاً وعلماً وعملاً، والرد على من تنكر للسنة وزعم أنه يكفي

قال الشافعي: فلما ندب رسول الله ﷺ إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها دل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه، لأنه إنما يؤدي عنه حلال يؤتى وحرام يجتنب، وهدى يُقام ومال يؤخذ ويعطى ونصيحة في دين ودنيا.

ثم أورد البيهقي حديث أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر مني مما أمرت به أو نهيت عنه يقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعنا». أخرجه أبو داود والحاكم.

وحديث المقدم بن معديكرب أن النبي ﷺ حرم أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلي وغيره، ثم قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل على أريكته يحدث بحديثي فيقول: بيني وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه، إلا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله». قال البيهقي: وهذا خبر من رسول الله ﷺ عما يكون بعده من رد المبتدعة حديثه فوجب تصديقه فيما بعده.

مناظرة رائعة في فرضية الأخذ بالسنة

ثم أخرج البيهقي بسنده عن شبيب بن أبي فضالة المكي أن عمران بن حصين رضي الله عنه ذكر الشفاعة، فقال رجل من القوم: يا أبا نجيد، إنكم تحدثونا بأحاديث لم نجد لها أصلاً في القرآن، فغضب عمران وقال للرجل: قرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعاً، ووجدت المغرب ثلاثاً، والغداة ركعتين، والظهر أربعاً، والعصر أربعاً؟ قال: لا، قال: فعن من أخذتم ذلك؟ الستم عنا أخذتموه وأخذناه عن رسول الله ﷺ؟ أوجدتم فيه من كل أربعين شاة شاة، وفي كل كذا بعيراً كذا وفي كل كذا درهماً كذا؟ قال: لا، قال: فعن من أخذتم ذلك؟ الستم أخذتموه عنا وأخذناه عن النبي ﷺ؟ وقال: أوجدتم في القرآن: ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أو وجدتم فيه فطوفوا سبعاً واركعوا ركعتين خلف المقام؟ أوجدتم في القرآن: لا جلب ولا جنب ولا شغار في الإسلام؟ أما سمعتم الله قال في كتابه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾. قال عمران بن حصين: فقد أخذنا عن رسول الله ﷺ أشياء ليس لكم بها علم. انتهى ملخصاً من مفتاح الجنة للسيوطي.

والحمد لله رب العالمين

بالقرآن الكريم، فإن هذا الزعم باطل بكل حال، وإن الذين ينكرون سنة رسول الله ﷺ عبارة عن فرق يتفاوتون فيما بينهم، فمنهم من يرد السنة جملة بزعم أنها من رواية الصحابة، والصحابة - عند هؤلاء - كفار، وهؤلاء هم الروافض، وهم لا شك مبطلون بل من زعم ذلك فقد خرج من الملة وأراد هدم الدين من أساسه، لأن الصحابة الذين نقلوا السنة هم الذين نقلوا القرآن، فمن طعن في السنة من هذا الباب طعن في القرآن فهدم الدين كله من أساسه.

وفريق يعرض السنة على عقله، فما وافق عقله منها قبله، وما لم يوافق رده، ولا مستند له في ذلك إلا العقل، وربما زعم أنه يرد نصاً بفهمه هو لنصوص أخرى يرى أن فهمه صحيح وبناء عليه يرد السنن. وقد يزيد على ذلك فيتنقص أصحاب رسول الله ﷺ ممن روى تلك الأحاديث التي لم توافق عقله وازدراه وسخر منه.

وفريق ثالث يقف موقفاً آخر فيرى أن لا حجة في أحاديث الأحاد في عقيدة ولا شريعة، وهذا مزلق خطير، إذ فيه رد لمعظم السنن الواردة عن رسول الله ﷺ، غير أنه بصحيح الأحاديث ولا معتمد لما قرره علماء السنة من أصول يعتمد عليها في هذا الشأن.

قال الشافعي في الرسالة: ففرض الله على الناس اتباع وحية وسنن رسوله، فقال في كتابه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، مع أي سواها ذكر فيهن الكتاب والحكمة.

قال الشافعي: فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضاه من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ثم ساق الكلام، إلى أن قال: فأعلمهم أن طاعة رسول الله ﷺ طاعته، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، واحتج أيضاً بقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وغيرها من الآيات التي دلت على اتباع أمره ولزوم طاعته، فلا يسع أحداً رد أمره لفرض الله طاعة نبيه.